بسم الله الرحمن الرحيم

٥٤ – سورة القمر

وتسمى سورة (اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ) وهى مكية . وآيها خمس وخمسون .

قال ابن كثير : ورد فى حـديث أبى واقد أن رسول الله ﷺ كان يقرأ بـ (قاف) و (وَاقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ) فى الأضحى والفطر. وكان يقرأ بهما فى المحافل الكبار، لاشتمالها على ذكر الوعد والوعيد ، وبدء الخلق وإعادته ، والتوحيد ، وإثبات النبوات ، وغير ذلك من المقاصد العظيمة .

obeikandl.com

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ)

« ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ » أى دنت الساعة التى تقوم فيها القيامة. كما قال(١) (أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ) وقال(٢) (ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ) .

قال ابن جرير(٣) : وهذا من الله تعالى إنذار لعباده بدنوّ القيامة ، وقرب فناء الدنيا ، وأمرٌ لهم بالاستعداد لأهوال القيامة ، قبل هجومها عليهم ، وهم عنها فى غفلة ساهون .

« وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢] (وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ)

« وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ » قال ابن جرير(٣) : كان ذلك ، فيما ذكر ، على عهد رسول الله ﷺ وهو بمكة ، قبل هجرته إلى المدينة . وذلك أن كفار أهل مكة سألوه آية ، فأراهم ﷺ انشقاق القمر حجة على صدق قوله ، وحقيقة نبوته . فلما أراهم، أعرضوا وكذبوا ، وقالوا هذا سحر مستمر، سَحَرَنا محمد. ثم روى ذلك عن أنس وابن مسعود وابن عباس ، وغير واحد من التابعين .

وقال القاضي عياض فى (الشفا) أخبر تعالى بوقوع انشقاقه بلفظ الماضى ، وإعراض الكفرة عن آياته . وأجمع المفسرون وأهل السنة على وقوعه ، ثم سرد الآثار فى ذلك .

(١) [١٦ / النحل / ١] . (٢) [٢١ / الأنبياء / ١] .

(٣) انظر الصفحة رقم ٨٤ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

وزعم ابن كثير أن أحاديثه متواترة ، إلا أن الشهاب نقل عن الإمام الخطابيّ أن معجزاته ﷺ ، غير القرآن ، لم تتواتر . والحكمة فيه أنها لو تواترت كانت عامة ، والمعجزة إذا عمت أهلك الله من كذّبها ، كما جرت به العادة الإلهية ، والنبيّ ﷺ بعث رحمة ، وأمّن الله أمته من عذاب الاستئصال .

ثم قال : وسبب تعرضهم للتواتر طعن بعض الملاحدة بأن القمر يشاهده كل أحد، فلو انقسم قطعتين تواتر وشاع في جميع الناس ، ولم يخف على أحـد . والطبائع حريصة على إشاعة مالم يعهد مثله، ولا أغرب من هذا . مع أن الملازمة غير لازمة، لأنه في الليل ، وزمان الغفلة ، ولا يلزم امتداده ، ولا أن يُرى إذ ذاك في جميع الآفاق ، لاختلاف المطالع . انتهى.

وقد ذكر ابن قتيبة في (تأويل مختلف الحديث) أن الذي طعن في تلك الآثار المروية عن ابن مسعود هو النظّام ، إلا أنه لم ينقل تأويله للآية على رأيه ، ولعله هو القول الثاني الذي حكاه الزمخشريّ والبيضاويّ ، ورواه أبو السعود عن عثمان بن عطاء عن أبيه أن المعنى : وسينشق القمر ، يعني يوم القيامة إذا انكدرت النجوم وانتثرت . والمراد بالآية إما القرآن أو ما يقترحونه لو أجيبوا إلى طلبه .

ومعنى (مُّسْتَمِرٌّ) دائم مطرد ، أو محكم قويّ ، من (مررت الحبل) إذا أحكمت فتله. أو مارّ ذاهب لا يبقى ، تعليلاً لأنفسهم بالأمانيّ الفارغة . أو منفور عنه لشدة مرارته مجازاً.

وجملة (وإن يروا) مستأنفة أو حالية .

قال الشهاب : ولو كانت هذه الجملة حالية ، والمعنى . أن الساعة اقتربت ، وانشقاق القمر فيها دنا زمانه ، وظهرت آثاره ، والحال أنهم مصرون على العناد ـ كان منتظماً أتم انتظام، ولا ضير فيه سوى مخالفته للمنقول عن السلف في تفسيرها ، فتأمل . انتهى .

أقول : ولي ههنا كلمة لا بد من التنبيه عليها ، وهي أن الرمي بالإلحاد لمنكرٍ حديثٍ غير مجمع على تواتره ، جنـاية كبرى ، وزلة عظمى . فإن باب التفكير والتضليل ، ليس بالأمر

القليل . ولأجله صنف حجة الإسلام الغزالىّ كتابه (فيصل التفرقة) ودمغ بحججه أولئك المتعصبين الذين سهل عليهم الرمى لمن خالفهم بالزندقة . ولعمر الحق إن هذا مما فرّق الكلمة، ونفّر حملة العلم عن تعرف المشارب والآراء ، حتى أصبح باب التوسع فى العلم مرتجاً، ومحيطه بعد مده منحسراً ، إذ هجرت كتب الفرق الأخرى بل أحرقت ، وأهين من يتأثلها ، ورمى بالابتداع أو التزندق ، كما يمر كثير من مثل هذا بمطالع كتب التاريخ وطبقات الرجال، فلا جرم نسيت الأقوال الباقية ، وعدت من الشاذ غير المقبول . وإذا ألصق اسم الإلحاد بقائلها ، فماذا يكون حالها ؟ وهذا ، كما لا يخفاك ، حيف على قواعد العلم ، وغل للأفكار . نعم ! تفلت منهم علم الأصول ، فلم تزل الأقوال الغريبة تتراءى على صفحاته ، وإن كان مما يغمز كثير منها ، إلا أنها سارت تلج آذانهم، ويحتج بها عليهم . وقد تنبه كثير من المحققين لما ذكرناه، وأشاروا له فى مواضع ، فقرروا فى كتب العقائد أنه لا يكفر أحد من أهل القبلة .

وقال العلامة الفنارىّ فى (فصول البدائع): ولا يضلل جاحد الآحاد .

وقال الإمام ابن تيمية : الصواب أن من رد الخبر الصحيح، كما كانت الصحابه ترده، لاعتقاد غلط الناقل أو كذبه ، لاعتقاد الرادّ أن الدليل قد دل على أن الرسول لا يقول هذا، فإن هذا لا يكفر ولا يفسق ، وإن لم يكن اعتقاده مطابقاً . فقد رد غير واحد من الصحابة غير واحد من الأخبار التى هى صحيحة عند أهل الحديث . انتهى .

وذكر الغزالىّ فى (الإحياء) فى كتاب آداب تلاوة القرآن فى الباب الثالث فى أعمال الباطن فى التلاوة ؛ أن من أركانها التخلى عن موانع الفهم . قال : فإن أكثر الناس منعوا عن فهم معانى القرآن لأسباب وحجب أسدلها الشيطان على قلوبهم ، فعميت عليهم عجائب أسرار القرآن . وحجب الفهم أربعة . إلى أن قال :

وثانيها ـ أن يكون مقلداً لمذهب سمعه بالتقليد ، وجمد عليه، وثبت فى نفسه التعصب له بمجرد الاتباع للمسموع من غير وصول إليه ببصيرة ومشاهدة . فهذا شخص قيده معتقده

عن أن يجاوزه ، فلا يمكنه أن يخطر بباله غير معتقده ، فصار نظره موقوفاً على مسموعه ، فإن لمع برق على بعد وبدا له معنى من المعانى التى تباين مسموعه ، حمل عليه شيطان التقليد حملة ، وقال : كيف يخطر هـذا ببالك ، وهو خلاف معتقد آبائك ؟ فيرى أن ذلك غرور الشيطان فيتباعد منه ، ويحترز عن مثله . ثم قال :

رابعها ـ أن يكون قرأ تفسيراً ظاهراً ، واعتقد أنه لا معنى لـكلمات القرآن إلا ماتناوله النقل عن ابن عباس ومجاهد وغيرهما ، وأن ما وراء ذلك تفسير بالرأى، وأن من فسر القرآن برأيه فقد تبوأ مقعده من النار ، فهذا أيضاً من الحجب العظيمة . ثم قال :

وسنبين معنى التفسير بالرأى ، وأن ذلك لا يناقض قول علىّ رضى الله عنه: إلا أن يؤتى الله عبداً فهماً فى القرآن . وأنه لو كان المعنى هو الظاهر المنقول ، لما اختلف الناس فيه .

ثم ذكر بعد ، عليه الرحمة ، أن النهى عن التفسير بالرأى ينزل على أحد وجهين :

أحدهما ـ أن يكون له فى الشيء رأى ، وإليه ميل من طبعه وهواه ، فيتأول القرآن على وفق رأيه وهواه ، ليحتج على تصحيح غرضه ، كالمحتج على تصحيح بدعة بتأويل يخترعه تلبيساً على خصمه ، وكالجاهل المتقحّم يتأول ما شاء هواه .

وثانيهما ـ أن يتسارع إلى التأويل بظاهر العربية من غير استظهار بالسماع والنقل فيما يتعلق بغرائب التنزيل . انتهى .

ويأتى مثل البحث فى كثير من المواضع التى فسرها بعض السلف بشيء ، أو روى فيها ما أنـكره غيره لما قام لديه . ولا ملام فى معترك الأفهام ـ وبالله التوفيق ـ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣] ﴿ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ، وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴾

« وَكَذَّبُوا » أى بآيات الله بعد ما أتتهم حقيقتها « وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ » أى مازين لهم من دفع الحق مما وجدوا عليه آباءهم « وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ » أى كل أمر لا بد أن يصير

إلى غاية يستقر عليها . تعريض بأن أمر الرسول لابد أن يستقر إلى غايةٍ، هي الظهور والنصرة؛ وأمر مكذبيه إلى الخذلان والشقاوة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] ﴿ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴾

[٥] ﴿ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ﴾

« وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ » أى عن القرون الخالية ، والحقائق الكونية ، مما يستحيل أن يأتى به أمىّ غيره صلوات الله عليه « مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ » أى مرتدع عماهم مقيمون عليه من التكذيب والغفلة واللهو « حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ » أى بلغت غايتها من الإحكام والتنزه عن الخلل ، ومن الاشتمال على البراهين القاطعة والحجج الساطعة. وهو بدل من (ما) أوخبر محذوف ، أى هو حكمة بالغة « فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ » جمع نذير . و (ما) نافية ، أو استفهامية . أى : أىّ غناء تغنى عن قوم آثروا الضلالة على الهدى ، فأعرضوا عنه ، وكذبوا به . وجوز أن تكون (حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ) جملة مستأنفة للتعجب من حالهم ، مع ما جاءهم مما يقود إلى الإيمان بادئ بدء . وهو ما يفهم من تأويل ابن كثير . وعبارته : (حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ) أى فى هدايته تعالى لمن هداه، وإضلاله لمن أضله (فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ) يعنى أى شيء تغنى النذر عمن كتب الله عليه الشقاوة ، وختم على قلبه. فمن ذا الذى يهديه من بعد الله ؟ وهذه الآية كقوله تعالى[١] (وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ) وكذا قوله تعالى[٢] (وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ) .

---

(١) [١٦ / النحل / ٩] .　　(٢) [١٠ / يونس / ١٠١] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] (فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ)

[٧] (خُشَّعًا أَبْصَـٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ)

[٨] (مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ ، يَقُولُ ٱلْكَـٰفِرُونَ هَـٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ)

« فَتَوَلَّ عَنْهُمْ » أى اصفح عن أذاهم ، وانتظر ما يأتيهم من الوعيد الشديد ، كما قال : « يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ » أى داعى الله إلى موقف القيامة ، وهو ملك . أو الدعاء تمثيل للإعادة كالأمر فى قوله (كُن فَيَكُونُ) تمثيل للإبداء ، والداعى هو الله تعالى « إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ » أى فظيع تنكره النفوس ، وهو موقف الحساب والجزاء والبلاء « خُشَّعًا أَبْصَـٰرُهُمْ » أى من الذل والصغار « يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ » أى قبورهم « كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ » أى فى الكثرة والتموج والانتشار . والجرادُ مثل فى الكثرة « مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ » أى مسرعين . مادّى أعناقهم إليه . « يَقُولُ ٱلْكَـٰفِرُونَ هَـٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ » أى لشدة أهواله و (يَوْمَ يَدْعُ) ظرف لـ (يَقُولُ) وقيل : بمضمر ، وقيل : بـ (يَخْرُجُونَ) والأول أظهر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩] (كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ)

« كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ » أى زجر عن الإنذار والتبليغ بشدة وقساوة ، كما يدل عليه صيغة (افتعل) .

قال الناصر : وليس قوله (فَكَذَّبُوا۟) الثانى تكراراً ، لأن الأول مطلق ، والثانى مقيد. وهو كقوله فى السورة[1] (فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ) فإن تعاطيه هو نفس عقره ، ولكن ذكره من جهة عمومه ، ثم من ناحية خصوصه إسهاباً ، وهو بمثابة ذكره مرتين . وجواب آخر هنا ،

(١) [٥٤ / القمر / ٢٩] .

وهو أن المكذب أولاً محذوف ، دل عليه ذكر نوح ، فكأنه قال : كذبت قوم نوح نوحاً ، ثم جاء بتكذيبهم ثانياً مضافاً إلى قوله (عَبْدَنَا) فوصف نوحاً بخصوص العبودية . وأضافه إليه إضافة تشريف . فالتكذيب المخبر عنه ثانياً ، أبشع عليهم من المذكور أولاً ، لتلك اللمحة . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠] (فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ)

« فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ » أى غلبنى قومى تمرداً وعتوًّا ، فلم يسمعوا منى . واستحكم اليأس منهم ، فانتقم منهم بعذاب ترسله عليهم .

ثم أشار إلى استجابته تعالى دعاءه : بالطوفان الذى هلكوا فيه ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١] (فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ)

[١٢] (وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ)

[١٣] (وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ)

[١٤] (تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ)

[١٥] (وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ)

[١٦] (فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ)

« فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ » أى منْدفق . وفيه استعارة تمثيلية ، بتشبيه تدفق المطر من السحاب بانصباب أنهار انفتحت لها أبواب السماء ، وشق لها أديم الخضراء . « وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا » أى وجعلنا الأرض كلها كأنها عيون تتفجر . « فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ »

أى ماء السماء وماء الأرض « عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ » أى على حال قدّره الله وقضاه، وهو هلاك قوم نوح . « وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ » يعنى السفينة . أقيمت صفاتها مقامها ، لتأديتها مؤداها . وهو من بديع الكلام ـ كما بسطه فى (الكشاف) ـ .

(ودُسُرٍ) جمع دِسار بكسر الدال ، أو دَسْر كسقف وسقف ،وهى أضلاعها ، أو حبالها التى تشد فيها ، أو مساميرها .

« تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا » أى بمرأى منا . كناية عن حفظها بحفظه تعالى وعنايته . « جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ » أى كفر به ، وهو الله تعالى ، أو نوح وما جاء به ، فهو من (الكفر) ضد الإيمان . أو هو نوح عليه السلام لأنه نعمة كفروها ، فهو متعد بنفسه ، استعير لنوح النعمة بطريق الكناية ، ونسب الكفران تخييلا أو حقيقة . « وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ » أى قصة نوح « ءَايَةً » أى جعلناها عِبْرَة يُعتبر بها . « فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ » ؟ أى معتبر ومتعظ . وأصله (مذتكر) . «فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ» أى عذابى لهؤلاء الكفرة، قوم نوح، وإنذاراتى بما أحلت بهم ، ليحذر أمثالهم وينتهوا عما يقترفونه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] (وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ)

« وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ » أى سهلناه للادّكار والاتعاظ ، لكثرة ما ضرب فيه من الأمثال الكافية الشافية « فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ؟ » أى فيعتبر بما فيه ، ويثوب إلى رشده .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨] (كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ)

[١٩] (إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ)

[٢٠] (تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ)

[٢١] (فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ)

[٢٢] (وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ)

« كَذَّبَتْ عَادٌ » أى نبيّهم هوداً عليه السلام ، بمثل ما كذّبت به قوم نوح « فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ* إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا » أى شديدة الهبوب، لها صرير ، أو باردة ، « فِى يَوْمِ نَحْسٍ » أى شر وشؤم عليهم « مُّسْتَمِرٍّ » أى استمر عليهم ودام حتى أهلكهم ، أو شديد المرارة لعظم بلائه . « تَنزِعُ ٱلنَّاسَ » أى تقلعهم عن أماكنهم . « كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ » أى أصول نخل منقلع عن مغارسه . وأصل (مُّنقَعِرٍ) ما أخرج من القعر . « فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ » كرّره للتهويل وللتنبيه على فرط عتوّهم . أى فكيف كان عذابى لقومه ، وإنذارى لهم على لسانه ؟ « وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ » ؟ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٣] (كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ)

[٢٤] (فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ)

[٢٥] (أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ)

[٢٦] (سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ)

[٢٧] (إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ)

[٢٨] (وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ ، كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ)

[٢٩] (فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ)

[٣٠] ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴾
[٣١] ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴾
[٣٢] ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾

« كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ » أى بما أنذرهم به نبيهم صالح عليه السلام . « فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَـٰلٍ وَسُعُرٍ »أى جنون، أوعناء. فهواسم مفرد. وقيل: جمع سعير ، كأنهم عكسوا عليه ، فرتبوا على اتباعهم إياه مارتبه على اتباعهم له .

قال الزمخشريّ قالوا : (أَبَشَرًا) إنكاراً لأن يتبعوا مثلهم فى الجنسية، وطلبوا أن يكون من جنس أعلى من جنس البشر ، وهم الملائكة . وقالوا (مِّنَّا) لأنه إذا كان منهم كانت المماثلة أقوى . وقالوا (وَاحِدًا) إنكاراً لأن تتبع الأمة رجلًا واحداً ، أو أرادوا واحداً من أفنائهم ليس بأشرفهم وأفضلهم . ويدل عليه قولهم « أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا » يعنون : الوحي والنبوة . أى وفينا من هو أحق بها على زعمهم ، لكونه أعز مالًا ونفراً « بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ » أى متكبر ، حمله كبره على استتباعنا له . « سَيَعْلَمُونَ غَدًا » أى عند نزول العذاب بهم ، أو يوم القيامة « مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ » أى المتكبر عن الحق، البطر له « إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ » أى آية وحجة لصالح على قومه امتحاناً لهم وابتلاء « فَٱرْتَقِبْهُمْ » أى انتظرهم وتبصر ماهم صانعوه بها «وَٱصْطَبِرْ» أى على دعوتهم « وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ » أى الذى يردونه لشرب مواشيهم «قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ» أى مقسوم بينهم، لها شرب يوم ، ولهم شرب يوم « كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ » أى يحضره صاحبه فى نوبته و (الشرب) النصيب من الماء .

ثم أشار تعالى إلى عتوهم عن أمر ربهم بقوله « فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ » فتناول الناقة بيده «فَعَقَرَ» أى فعقرها وقتلها « فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ * إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ » أى كالشجر اليابس المتكسّر ، الذى يتخذه

من يعمل الحظيرة للغنم ونحوها. أو كالحشيش اليابس الذى يجمعه صاحب الحظيرة لماشيته فى الشتاء . وقرئ بفتح الظاء ، اسم مكان . أى كهشيم الحظيرة ، أو الشجر المتخذ لها . وهو تشبيه لإهلاكهم وإفنائهم ، وأنهم بادوا عن آخرهم ، لم تبق منهم باقية ، وخمدوا وهمدوا ، كما يهمد وييبس الزرع والنبات بعد خضرة ورقه ، وحسن نباته .

قال ابن زيد : كانت العرب يجعلون حظاراً على الإبل والمواشى من يبس الشوك .

وعن سفيان: الهشيم ، إذا ضربت الحظيرة بالعصا، تهشم ذاك الورق فيسقط ، والعرب تسمى كل شىء كان رطباً فيبس ، هشيماً « وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٣] (كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِٱلنُّذُرِ)

[٣٤] (إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لوطٍ ، نَّجَّيْنَـٰهُم بِسَحَرٍ)

[٣٥] (نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا ، كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ)

[٣٦] (وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا۟ بِٱلنُّذُرِ)

[٣٧] (وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ)

[٣٨] (وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ)

[٣٩] (فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ)

[٤٠] (وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ)

« كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِٱلنُّذُرِ* إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا » أى ملكاً يرميهم بالحصباء والحجارة. أو ريحاً تحصبهم بالحجارة، أى ترميهم « إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَـٰهُم بِسَحَرٍ » أى

فى سحر . أو (الباء) للملابسة ، أو المصاحبة . وذلك أنه تعالى أوحى إليهم أن يخرجوا من آخر الليل ، فنجوا مما أصاب قومهم . ولم يؤمن بلوط من قومه أحد ، ولا رجل واحد ، حتى ولا امرأته ، وقد أصابها ما أصابهم . وخرج نبيّ الله لوط عليه السلام وبنات له ، من بين أظهرهم سالمين لم يمسسهم سوء « نِعْمَةً مِّنْ عِندِنَا » أى إنعاماً منا، وهو علة لـ(نجينا) « كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ » أى فأطاع ربه ، وانتهى إلى أمره ونهيه . و (الشكر) صرف العبد جميع ما أنعم عليه ، إلى ما خلق لأجله « وَلَقَدْ أَنذَرَهُم » أى لوط « بَطْشَتَنَا » أى أخذتنا بالعذاب « فَتَمَارَوْا بِٱلنُّذُرِ » أى بإنذاراته ، تكذيباً له « وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ » أى طالبوه بإتيان الفاحشة معهم، وهم الملائكة الذين وردوا عليه فى صورة شباب مُرْدٍ حسان ، محنة من الله بهم ، فأضافهم لوط عليه السلام ، وبعثت امرأته العجوز السوء إلى قومها تعلمهم بأضيافه عليه السلام ، فأقبلوا يهرعون إليه من كل مكان ، فتلقاهم يناشدهم الله أن لا يخزوه فى ضيفه ، فأبوا عليه ، وجاءوا ليدخلوا عليه ، فأعمى الله أبصارهم ، فلم يروهم، كما قال « فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ * وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ » أى يدوم بهم إلى النار . « فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ * وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ » قال الزمخشرىّ : فإن قلت : مافائدة تكرير قوله (فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ) (وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ...) الخ ؟ قلت : فائدته أن يجددوا عند استماع كل نبأ من أنباء الأولين ادّكاراً واتعاظاً ، وأن يستأنفوا تنبهاً واستيقاظاً ، إذا سمعوا الحث على ذلك ، والبعث عليه ، وأن يقرع لهم العصا مرات، ويقعقع لهم الشن تارات، لئلا يغلبهم السهو، ولا تستولى عليهم الغفلة . وهكذا حكم التكرير كقوله[1] (فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) عند كل نعمة عدها فى سورة (الرحمن) . وقوله[2] (وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ) عند كل آية أوردها فى

---

(١) [٥٥ / الرحمن / ١٣] . (٢) [٧٧ / المرسلات / ١٥] .

سورة (والمرسلات) . وكذلك تكرير الأنباء والقصص فى أنفسها ، لتكون العبر حاضرة للقلوب ، مصورة للأذهان ، مذكورة غير منسية فى كل أوان . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤١] (وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ)

[٤٢] (كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَـٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ)

« وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ » يعنى موسى وهرون ، وجمعهما للتعظيم ، أو هو جمع نذير بمعنى الإنذار « كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا كُلِّهَا » يعنى الآيات التسع ، أو الأدلة والحجج التى أتتهم ناطقة بوحدانيته تعالى . « فَأَخَذْنَـٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ » أى عاقبناهم عقوبة شديد لا يغالَب « مُّقْتَدِرٍ » أى عظيم القدرة لا يعجزه شىء .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٣] (أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُو۟لَـٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ)

[٤٤] (أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ)

« أَكُفَّارُكُمْ » يا معشر قريش « خَيْرٌ مِّنْ أُو۟لَـٰٓئِكُمْ » أى الكفار المعدودين الذين حلت النقمة حتى يأمنوا جانبها « أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ » أى براءة من عقابه تعالى ، وأمان منه ، مع أنكم على شاكلة من مضى نبؤهم « أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ » أى ممتنع لا يرام . أو منتصر ممن أراد حربنا ، وتفريق كلمتنا . أو متناصر ، ينصر بعضنا بعضاً ، فالافتعال بمعنى التفاعل ، كالاختصام بمعنى التخاصم . وإفراد (مُّنتَصِرٌ) مراعاة للفظ (جَمِيعٌ) لخفة الإفراد ، ولرعاية الفاصلة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٥] (سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ)

[٤٦] (بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ)

« سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ » يعنى جمع كفار قريش « وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ » أى يولّون أدبارهم المؤمنين بالله ، عند انهزامهم. وإفراد (الدبر) لإرادة الجنس، أو رعاية الفواصل، ومشاكلة قرائنه . وقد وقع ذلك يوم بدر . وهو من دلائل النبوّة ، لأن الآية مكية ، ففيها إخبار عن الغيب، وهو من معجزات القرآن . « بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ » قال ابن جرير[1]: ما الأمر كما يزعم هؤلاء المشركون من أنهم لايُبعثون بعد مماتهم، بل الساعة موعدهم للبعث والعقاب. « وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ » أى أعظم داهية ، وهى الأمر المنكر الذى لايهتدى لدوائه . وأمرّ مذاقاً ، أو أشد عليهم من الهزيمة التى سيهزمونها ، إذا التقوا مع المؤمنين للقتال .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٧] (إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ)

[٤٨] (يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ)

« إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ » أى عن الحق فى الدنيا « وَسُعُرٍ » أى نيران فى الآخرة. وقال القاشانىّ : أى فى ضلال عن طريق الحق ، لعمى قلوبهم بظلمة صفات نفوسهم . و (سُعُرٍ) أى جنون ووله ، لاحتجاب عقولهم عن نور الحق بشوائب الوهم ، وحيرتها فى الباطل .

« يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ » أى يجرّون عليها . « ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ » أى حرّها وألمها . والاستعارة فى المس تحقيقية . أوفى (سَقَرَ) مكنية، وفى (المسّ) تخييلية.

(١) انظر الصفحة رقم ١٠٩ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

أو المس مجاز مرسل بعلاقة السببيّة للألم . واستعارة الذوق مشهورة ، واستعمال الذوق في المصائب بمنزلة الحقيقة . و (سَقَرَ) من أسماء جهنم ـ أعاذنا الله منها ـ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٩] (إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ)

« إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ » أي بمقدار استوفى فيه مقتضى الحكمة ، وترتب الأسباب على مسبّباتها . ومنه خلق دار العذاب، لما كسبت الأيدي، وإذاقة ألمها جزاء الزيغ عن الهدى . وهذه الآية كآية[١] (وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا)، وآية[٢] (سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى * الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ * وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ) أي قدّر قدرًا ، وهدى الخلائق إليه . ولا مانع أن تكون هذه الآية وما بعدها إلفاتًا لعظمته تعالى ، وكبير قدرته، وأن من كانت له تلك النعوت المثلى لجدير أن يُعبد وحده ، ويُرهب بأسه ، ويُتّقى بطشه ، لاسيما وقد صدع الداعي بإنذاره ، ومن أنذر فقد أعذر .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٠] (وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ)

« وَمَا أَمْرُنَا » أي الذي به الإيجاد «إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ » أي كلمة واحدة يكون بها كل شيء ، بمقتضى استعداده ، كلمح بالبصر في السرعة .

قال القاشاني : (إِلَّا وَاحِدَةٌ) أي تعلّق المشيئة الأزلية الموجبة لوجود كل شيء في زمان معيّن ، على وجه معلوم ، ثابت في لوح القدرة ، المسمّى في الشرع بـ (كُن) ، فيجب وجوده في ذلك الزمان، على ذلك الوجه دفعة . انتهى .

وقيل : معنى الآية ، معنى قوله تعالى[٣] (وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ) .

(١) [٢٥/ الفرقان/ ٢] . (٢) [٨٧/ الأعلى/ ١ـ٣] . (٣) [١٦/ النحل/ ٧٧].

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥١] (وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ)

« وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ » أى أشباهكم فى الكفر من الأمم السالفة .

قال الشهاب : أصل معنى (الأشياع) جمع شيعة ، وهم من يتقوّى بهم المرء من الأتباع. ولما كانوا فى الغالب من جنس واحد ، أريد به ما ذكر ، إما باستعماله فى لازمه ، أو بطريق الاستعارة .

« فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ » أى متعظ بذلك ينزجر به .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٢] (وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى الزُّبُرِ)

« وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى الزُّبُرِ » أى الكتب التى أحصتها الحفظة عليهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٣] (وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ)

« وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ » أى من الأعمال « مُّسْتَطَرٌ » أى مسطور لا يمحى ولا ينسى ، كما قال تعالى[١] (وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ، وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ، وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا) وقوله سبحانه[٢] (وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا * ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا) .

وروى الإمام أحمد[٣] عن عائشة رضى الله عنها ؛ أن رسول الله ﷺ كان يقول :

(١) [١٨ / الكهف / ٤٩] . (٢) [١٧ / الإسراء / ١٣و١٤] .

(٣) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٧٠ من الجزء السادس (طبعة الحلبى) .

يا عائشة ! إيّاكِ ومحقّرات الذنوب ، فإن لها من الله طالباً .

قال ابن كثير : ورواه النسائىّ وابن ماجة من طريق سعيد بن مسلم بن ماهك المدنىّ ، وثّقه أحمد وابن معين وأبو حاتم وغيرهم . وقد رواه الحافظ ابن عساكر فى ترجمة سعيد بن مسلم هذا ، من وجه آخر . ثم قال سعيد : فحدّثت بهـذا الحديث عامر بن هشام فقال لى: ويحك ياسعيد ! لقد حدّثنى سليمان بن المغيرة أنه عمل ذنباً فاستصغره ، فأتاه آتٍ فى منامه ، فقال له : يا سليمان !

لاتحقِرَنَّ من الذُّنوبِ صَغيرَا ... إنَّ الصغيرَ غـدًا يعودُ كَبيرَا
إنَّ الصغيرَ ، وَلَوْ تَقَادَمَ عَهْدُهُ ، ... عنـد الإله مُسَطَّرٌ تسطيرَا
فازجُرْ هواكَ عَنِ الْبِطَالَةِ ، لاتـكن ... صعبَ القِيَادِ وشَمِّرَنْ تَشْمِيرَا
إنَّ المُحِبَّ إذا أَحَبَّ إِلٰهَهُ ... طارَ الفؤادُ وأُلْهِمَ التفـكيرَا
فاسْأَل هِدايتك الإله ، فَتَتَّئِدْ ... فَـكَفَىٰ بِرَبِّـكَ هَادِياً وَنَصِيرَا

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٤] (إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ)

[٥٥] (فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ)

« إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ » أى الذين اتقوا عقاب الله بطاعته، وأداء فرائضه، واجتناب نواهيه، « فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ » أى أنهـار . واكتفى باسم الجنس المفرد لرعاية الفواصل . وقرئ بسكون الهاء ، وضم النون ، وقرئ بضمهما . « فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ » قال ابن جرير[1] : أى فى مجلس حق لا لغو فيه ولا تأثيم .

وقال الزمخشرىّ : فى مكان مرضىّ . قال شرّاحه : فالصدق مجـاز مرسل فى لازمه ،

(١) انظر الصفحة رقم ١١٣ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

أو استعارة . وقيل : المراد صدق المبشَّر به ، وهو الله ورسوله . أو المراد أنه ناله من ناله بصدقه وتصديقه للرسل ، فالإضافة لأدنى ملابسة .

« عِندَ مَلِيكٍ » بمعنى ملك . قال الشهاب : وليس إشباعاً ، بل هى صيغة مبالغة كالمقتدر « مُّقْتَدِرٍ » قال القاشانىّ : أى يقدر على تصريف جميع ما فى ملكه على حكم مشيئته ، وتسخيره على مقتضى إرادته لا يمتنع عليه شىء .

وقال الشهاب : فى تنكير الاسمين الكريمين إشارة إلى أن ملكه وقدرته لا تدرى الأفهام كنههما ، وأن قربهم منه بمنزلة من السعادة والكرامة ، بحيث لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، مما يجل عن البيان ، وتكلّ دُونه الأذهان .

obeikandl.com